البادية والحرب

كان قتيبةُ بنُ مسلم قائداً من نوابغ القادة المعدودين الذين أنجبتْهم الأُمة العربية فى صدر الإسلام . .

وكان يلى خُراسانَ لملوك الدولةِ الأُموية ، فخرجت بها خارجةٌ أهمَّته[1] ، فقيل له : «ما يُهمك منهم ؟ . . وجِّه إليهم وكيعَ بنَ أبى مسعودٍ فإنه يكفيكَهم » . فأَبى ، وقال : «لا . . إن وكيعاً رجلٌ به كِبْرٌ يحتقرُ أعداءه ، وَمَنْ كان هكذا قلَّت مبالاتُه بعدوه فلم يحترس منه فيجدُ عدوُّه منه غِرَّةً[2] . . . »

وهذه كلمة من كلمات القائد العربى تُنبئُ عن كثير :

تنبئُ عن ملَكة القيادة فيه ، وتنبئُ عن ملكة السيادة فى الأُمة التى نشأَ منها واستطاعت بها أن تَسوس الأُمم فى الحرب والسلم ، سياسة للنجاح وللبقاء . .

فالحق أن شروط القيادة على وفرتها وعِظَم التَّبِعة فيها جميعاً ، ليس يوجد بينها ما هو ألزم للقائد من القدرة على سبْرِ قوته[3] وسبْرِ

---

(١) الخارجة واحدة من الخوارج ، وهم المتمردون على السلطان ، وأهمته : أقلقه .

(٢) الغرة : الغفلة

(٣) سبر قوته : اختبارها .

قوة خصمه . وكل ما عدا ذلك إنما هو ترتيبٌ لما يصنعه بقوته وما يتوقع من القوة التى ينازلها أن تصنَعه ، أو هو تنظيمٌ للأُهبة والحيْطة بين الفريقين فى المكان الذى يتلاقيان فيه .

وقد كانت لهزيمة الدول أمام العرب أسبابٌ كثيرة : منها ضعف العقيدة واختلالُ النظام ونقص القيادة ، وانحلال الترف وتفرق الآراء ، ولكنَّ البلاء الأكبر إنما حاق بتلك الدول من آفة الغرور الباطل ، والاستخفاف بالخصم المقاتل . فانتصر العرب لأنهم ظنوهم لا ينتصرون ولا يعتزمون الانتصار، وكان الاستخفاف والإهمال شرًّا على تلك الدول المتصلِّفة[1] من الاستهوال والفزع . بل كان الاستخفاف والإهمال سبباً لانقلابهم آخر الأمر إلى استهوال يخذُل المفاصل ، وفزع يفُت فى الأعضاد ، فاجتمعت عليهم البليَّتان من سوء التقدير ، ولم تنفعهم قلةُ المبالاة بالعدو ولا فرطُ المبالاةِ به بعد الأوان .

* * *

كانت دولةُ الفرس لا تنظر إلى البادية العربية إلا نظرةَ السيد المبجَّل إلى الغوغاء المهازيل[2] الذين يحتاجون إما إلى العطاء وإما

(١) المتصلفة : من الصلف ، وهو التكبر والادعاء .

(٢) الغوغاء : من الناس ، أى الكثير المختلطون ، والمهازيل : الضعاف .

إلى التأديب ، وبلغ من طغيان كسرى حين جاءته الدعوةُ المحمدية أنْ بعث إلى النبي بِشرذمَةٍ[١] من الجند تأتيه به فى الأصفاد[٢] ! . . وبلغ من طغيان جندِه عامةً وخاصةً أنهم كانوا يأنفون أن يقْرِنهم أحدٌ بالعرب فى معرض من المعارض أو غرض من الأغراض ولو للحيلة والمكيدة . فاتفق فى بعض وقعاتِ العراق أنَّ زعيماً عربيًّا من حِيرة الفرسِ أقبل على القائد الفارسى مهران بنِ بهرام . ليمِدَّه بأبناء قبيلته ويُعينَه على خالدِ بنِ الوليد وجندِه . فقال له : « إن العربَ أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالدًا ! » فجاراه القائد الفارسىُّ مجاملةً وخدعةً ليستخلص منه أقصى العون والنجدة ، وقال له : صدقْت لَعَمْرى ! لأنتم أعلمُ بقتال العرب ، وأنتم مثلُنا فى قتال العجم . . . فغضب أتباعُه لمجاملته هؤلاء القوم الذين يعينونهم ويقاتلون فى صفوفهم ، وسألوه : كيف تقول ما قلت لهذا الكلب ؟ . . فلم يهدأوا عنه حتى اعتذر لهم بأنه يخدع القوم ويغرِّر بهم . وقال لهم : « دعونى فإنى لم أردْ إلا ما هو خيرٌ لكم وشرٌّ لهم . . فإن كانت لهم على خالد فهى لكم[٣] . وإن كانت الأُخرى لم يبلغوكم

(١) الشرذمة : الطائفة من الناس .
(٢) الأصفاد : القيود . جمع صفد .
(٣) أى فإن انتصروا على خالد .

- أى المسلمون - حتى يَهِنوا[١] فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعَفون.. ».

وسَخُفوا[٢] فى طلائع وقعة « أُلَّيْس »[٣] فلم يحفِلوا بجيش خالد الزاحفِ إليهم ، وتنادَوْا إلى طعامهم الذى هيأوه ، ولم يكلِّفوا أنفسَهم قبل ذلك مشقةَ استطلاعِ الطريق !.. ليأْمنوا البغتة[٤] قبل تهيئة الطعام .

أما الروم فكان لهم غرورٌ كهذا الغرور فى مواجهة البادية العربية ، وكان قُصارَى ما حَذِروه فى أولِ الأمر أن يُغيرَ العربُ على تخومِهم لينهبوا ويسلُبوا ثم يفرُّوا بسَلَبهم[٥] إلى الصحراء . . فإن أوغلوا فى بلاد الدولة الرومانية فهم مأْخوذون بالهبات والوعود ، أو مأْخوذون بالكثرة المستعدة لا يقومُ لها جندٌ قليل يوشك أن يتجرَّد من السلاح بالقياس إليهم . فلما جَدَّ الجِدُّ وعرفت الدولة الرومانية مَن تقاتل من أولئك الجند العَزْل[٦] على زعمها إذا هى

(١) حتى يهنوا : حتى يضعفوا .

(٢) سخفوا : رقوا وضعفوا .

(٣) أليس : لما تم لخالد القضاء على فتنة اليمامة ومسيلمة الكذاب ، أمره أبو بكر بالتوجه لغزو الفرس ، وكان قد سبقه إلى حدودها المثنى بن حارثة . . فلحق به خالد ، وتعاونا على غزوهم ، وهزم قائد حامية الحيرة فى أليس .

(٤) البغتة : المفاجأة .

(٥) السلب : المسلوب ، ومثله السليب .

(٦) جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .

تنقلب من الغفلةِ الشديدة إلى الفزع الشديد .

* * *

ويبدو لنا أن المؤرخين المُحْدَثين لم يبرءوا كلَّ البُرء من هذا الخطإِ القديم . . فلا يزالُ الأَكثرونَ منهم يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرسَ والروم ، ويحسبون هذه الغَلَبَةَ شيئاً قد حصل وكان ينبغى ألا يحصُل ، لولا أنها فلتةٌ لا يُقاس عليها ، ومصادفةٌ لا تقبل التكرار !

وبعضُهم يلتمس العلةَ فيقول : إنما هى وَهْنُ الدولتين ومصابهما بالخَوَر والانحلال ، أو يلتمس العلة فيقول : «إنَّها عقيدةُ المسلمين القويةُ وافتقارُ الفرسِ والرومِ إلى مثل هذه العقيدة» .

وكل أُولئك تعليل ناقصٌ من كلِّ نواحيه .

فالمصادفة لا محلَّ لها فى حوادث الوجود ، ولا تَطَّرِدُ فى قتالٍ بعد قتال ، من جوفِ الصحراء إلى عمران العراق والشام ومصرَ ومشارقِ الأَرضِ ومغاربها بين إفريقيةَ والصين . .

وانحلالُ دولة من الدول قد يُفنيها ويُعجزها عن النصر ولكنَّه لا يُقيم دولةً أُخرى لم تتجمعْ لها أسبابُ النهوضِ والتمكين

والعقيدة قوةٌ لا غَنَاء عنها بقوة أُخرى لن يفقدها ، ولكنها

هى وحدَها لا تُغنِى عن الخِبرة والاستعداد ، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخُطط والقُوّاد . وقد كان المسلمون على عقيدتهم الراسخة يومَ لقائِهم هوازنَ وشيعتَها بوادى حُنين ، فأَوْشَكوا أن ينهزِموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلةِ مبالاتهم بعدوهم ، وأوشكت عاقبةُ الاستخفاف هنا أن تصيبَ المسلمين كما أصابت الفرسَ والروم ، وفى ذلك يقولُ القرآن الكريم :

« . . . ويَوْم حُنَيْنٍ إذْ أعجبتْكم كثرتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً وضَاقَتْ عليكُم الأَرضُ بما رَحُبَتْ ثم وَلَّيْتُم مُدْبِرين » . .

فمهما يهرُبْ هؤلاءِ المؤرخون من الحقيقة فلا محيصَ[1] لهم من الرجوع إليها لفهم الغَلَبة الإسلامية ، أو فهم الهزيمة الفارسيةِ والرومانية ، وهذه الحقيقةُ هى أن المسلمين كانوا أيضاً أخبرَ بالفنونِ العسكرية من أهل فارسَ والروم ، وكانوا أقدرَ على تنفيذ الخطط العسكرية التى تنفعُهم من قواد تينِكَ الدولتين ، وأن البادية العربية سواءٌ فى عصور الجاهلية أو صدر الإسلام لمْ تكن من الجهل بفنِّ الحرب بتلك الحالة التى تَوهَّمَها المؤرخون الأوربيون ، بل معظمُ المؤرخين عامةً ولا نُحَاشِى[2] منهم العرب والمسلمين . .

(١) لا محيص : لا مفر .
(٢) لا نحاشى : لا نستثنى .

* * *

فالصورةُ الشائعةُ فى خيالِ أكثرِ القارئين عن البادية أنَّ حروبَ الصحراء لم تكن إلا مشاجرات بالسيوف والرماح أو بالقِسِيِّ والمقاليع[١] ، لا ترجع إلى نظام ولا تنهج على خطة ولا يخلص منها فن يتعلمه المتعلم ، ويتلقاهُ اللاحقُ عن السابق ، وقوامُ أمرها شراذمُ من السُّطاةِ[٢] والمغيرين سَرعانَ ما تُقبل حتى تُدبر ، وقُصَارى ما تعرفه من أساليب القتال أن تفرَّ بعد الكرِّ أو تكُرَّ بعد الفرار .

وهذه صورة مضلِّلة لمن يسترشد بها فى اختيار قدرة البادية على الحروب الكبيرة والمناوشات الصغيرة .

فمن الخطإ « أولا » أن تستخِفَّ بالرياضة التى يُراض[٣] عليها الجيلُ بعد الجيل حيث تتعاقب الأجيال على أمثال هذه المناوشات ، أو على ما نسميه اليوم حربَ العصابات ، حتى لو صح أنها كانت هى كلَّ ما يعرفه أهلُ الصحراء من فنون القتال .

فالذى لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيالُ على حروب العصابات التى تشترك فيها القبائل أبدًا بين عادية ومعدوٍّ

(١) القسى : جمع قوس يذكر ويؤنث . والمقاليع جمع مقلاع وهو الذى يرمى به الحجر

(٢) أى أنها تعتمد على جماعات قليلة من الذين يسطون ويغيرون

(٣) يراض عليها : يدرب

عليها ؛ وأن البدوىَّ قد عاش زمناً كما جاء فى التوراة «يَدُه على كلِّ إنسانٍ ويدُ كلِّ إنسانٍ عليه » . فحصل من ذلك على مَلَكة مطبوعة يصح أن تُسمَّى «حاسةَ الحرب » أو أهْبة الميدان الخالد التى لا تفارقه فى ليل ولا نهار . فلا يزالُ حياتَه فى حيطةِ المُدافع واستعدادِ المُهاجم ويَقْظةِ القلب للنضال الذى يتعرَّض له بين مضطرٍّ مغتصَب أو طائع مختار .

وهذه مَلَكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يُنْدَبون للقتال بين آونة وأُخرى ، ويتدربون عليه كأنه عملٌ يؤدَّى فى مكانِ العمل ، ثم يُطْرَحُ عن العاتق فى سائر الأوقات .

* * *

ومن الرياضة التى يُرَاض عليها الجيلُ بعد الجيل حيث تتعاقب حروبُ العصابات أنهم يتعودون الصبرَ على الفرار ، ويملكون الجأْش عند الإدبار[1] ، لأن الفِرار عندهم حركةٌ من الحركاتِ المألوفة فى كل وقعة يخُوضون غِمارها ، وليست هزيمة تطيشُ باللبِّ وتَخلع الفؤاد وتُوقع فى رُوع[2] صاحبها أنه ضيَّع الأملَ ولم يبق له من

(١) الجأش : القلب والصدر ، والمعنى يملكون ثبات القلب عندما يضطرون إلى التقهقر

(٢) الروع : القلب والعقل

أطوار القتال غيرُ التسليم . فهو فى حالة صالحة لاستئناف القتال إن أقبل وإذ أدبر . وسواء طَمع فى النصر أو لاذ بالنجاة ، وكأنه يتأخر لينقدم فى حينها أو بعد حين ، ويتحول إلى الوراء كما يتحول إلى الشمال أو اليمين ، طوعاً لأمر مقصود ، وجريا فى عِنَان ممدود[١] ، ومن هنا تَيسَّرَ لقوّاد العرب فى الغزوات الكبيرة أن يلَمُّوا شملَ الجيش المنهزم فى سويعات معدودات ، وأن يتداركوا الخِذلانَ من حيثُ يَعْسُر على الجيوشِ المنظَّمة أن تتداركَه قبل زمن طويل . .

ولن تخلوَ العصاباتُ المغيرة – مع طول المَرانة – من علمٍ بأُصول الاستطلاع والمباغتةِ والتبييت والمخاتلة[٢] وحسبان الحساب للرجعة والإفلات ، وهى على بساطتها أصولٌ لا نَدْحَة[٣] عنها فى أكبر الميادين وأصغرها على السواء .

هذا إن صحَّ أن حروب العصابات هى كلُّ ما حذِقه عربُ البادية من فنون القتال فى تاريخهم القديم .

وذلك غير صحيح . .

---

(١) العنان : لجام الفرس تمده أو تشده تبعاً للسرعة التى تريدها ، وفى العبارة مجاز .

(٢) التبييت : الإيقاع بالعدو ليلا ، والمخاتلة : المخادعة

(٣) لا ندحة عنها : ليس ثمة ما يبرر إغفالها – لابد منها .

فالعرب قد عرفوا فى حروبهم التى وقعت بينهم تسييرَ الجيوش بعشرات الأُلوف على اختلاف الأسلحة والأقسام ، وقيل إن جيش الغساسنة الذى حارب المنذرَ بنَ ماء السماء لم يكن يقل عن أربعين ألفاً بين راجل وفارس ، وكان فى الجيش معاً راكبوا الخيل وراكبوا الإبل وحاملوا السيوف وحاملوا الرماح والضاربون بالسِّهام والنبال والضاربون بالحراب والحجارة .

• • •

ولقد كانت الغساسنةُ[1] والمناذرةُ أصحابَ مُلْك قائم لا يعسُر عليهم تسيير هذه الأُلوف المؤلفة إلى الميادين القريبة ، ولكنَّ القبائلَ التى لم تكن على شىء من هذا المُلك كانت تسوق الأُلوفَ للقاء أمثالها وتستعد لها بالجيوش التى تساوى فى عددها بعضَ جيوش القتال فى عصرنا الحديث ، فاستعدت مَذْحِجُ لقتالِ تميم يوم الكُلاب الثانى[2] بثمانية آلاف ، وجرى بين الفريقين من حِيَل الاستطلاع والمراوغةِ والهجوم والمطاردة ما هو محتو لكلِّ عناصر الكفاح الأُولى فى كل زمان . .

(١) الغساسنة : نسبة إلى غسان ، وكان ملكهم فى الشام ، وأما ملك المناذرة فكان فى الحيرة (العراق) .

(٢) أيام العرب تطلق على الوقائع التى كانت بينهم فى الجاهلية ، وقد عد أبو الفرج الأصفهانى منها ألفا وسبعمائة يوم ، وفى يوم (الكلاب الثانى) انتصرت تميم على مذحج .

على أن البادية لم يفتْها قطُّ علمُ الحرب كما عَلمَتْه دول الحضار فى عصور الجاهلية العربية ، فكانت غسانُ على مقرَبة من الروم تدخلُ معهم فى الفرق المتطوعة على حالَىْ الدفاع والهجوم ، وكان ملوكُ الحِيرة على مقرَبة من الفرس يخدَمهم أحياناً كتيبتان من الجيش الفارسىِّ هما الشهباءُ والدَّوْسر أو «الدوشير» بمعنى الأسدين شعارِ الدولة الفارسية ، وكان جندُ الشهباء من أبناء فارسَ وجندُ الدوسرِ من أبناء القبائل العربية ، وليس يحتاج العربى إلى أكثرَ من هذه المقاربة وهذه القدوة لالتقاطِ الفنون التى يحتاج إليها فى تعبئة الجيوش ، وللفطنة إلى المخاوفِ التى يتَّقيها فى مواجهة التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة .

وقد تبين هذا فعلا فى وقعة ذى قار[1] التى تغلَّب فيها العربُ على الدولة الفارسية . فإن العربَ كانوا فى تلك الوقعةِ أبرعَ قيادةً وأخبرَ بفنون الزحف والتعبئة من قادة الجيوش النظامية . فلم يغفَلوا قط عن حِيطةٍ واجبة أو حِيلة نافعة قبل اشتباكهم بالجيوش

(١) يوم ذى قار : نسبة إلى ماء قريب من البصرة ، وكان سبب الحرب أن كسرى استقدم إليه النعمان بن المنذر فى المدائن ثم غدر به وقتله ، وكان هذا اليوم بعد مبعث النبى صلى الله عليه وسلم . وأخبر به أصحابه فقال (إن هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبى نصروا) .

الفارسية : بعثوا الطلائعَ وبثُّوا العيونَ وقسَّموا جموعَهم إلى ميمنة تولاها بنو عِجْل ، وميسرةٍ تولاها بنو شَيْبَانَ وقلب تولته بطونٌ من بكر عليهم رئيسَهم القديرُ هانئُ بنُ مسعود ، وأنفذوا إلى قبائل العرب الذين فى جيش الفرس رُسَلاً يُثيرون نخوتَهم ويَغرونهم بالتخلِّى عن أصحابهم حين يَجِدُّ الجد ويلتحم الجيشان ، فوافقتْهم إيادُ وبرَّتْ بوعدها فولتْ من الميدان فى أحرج الأوقات . .

* * *

ولما أصبح يومُ الوقعةِ الحاسمةِ أقبل الفرسُ ومعهم الأفيالُ والفرق المدرعة فلم يَرُعْ قادةَ العرب ما شاهدوا من ذلك الجيش الزاخر وتلك العُدَّة الوافية ، بل تشاوروا أمرهم وَعَقدوا بينهم ما يشبه «مجلسَ الحرب» فى اصطلاح هذه الأيام . فقام ربيعةُ ابنُ غزالةَ السكونى : «لا تستهدفوا[1] لهذه الأعاجم فتهلكَكم بنُشَّابها[2] ، ولكن تكردسوا كراديسَ[3] ، فإذا أقبلوا على كُرْدُوس شدَّ الآخرُ» . وقال حنظلةُ بن ثعلبةَ : «إن النُّشَّابَ الذى مع الأعاجم يفرِّقكم ، فإذا أرسلوه لم يَخطئْكم ، فعاجلوهم

(١) لا تستهدفوا لهم : لا تقفوا بحيث تكونون هدفا ظاهرا لهم .

(٢) النشاب : السهام ، جمع نشابة .

(٣) تكردسوا كراديس : تجمعوا كتيبة كتيبة .

اللُّقاء ، وابدأوهم بالشِّدَّة[١] . وقال يزيدُ بن حمار : «أكْمِنوا لهم كميناً» ففعلوا وأكمنوه فى موضع يقال له الخبيءُ ، وأوصوه أن يظهرَ حين يشتد القتال بين العسكرين وتفر قبيلةُ إيادَ من صفوف الأعاجم ، فيكونَ فرارُ أنصارهم وإقبالُ المدد إلى خصومهم مع احتدام القتال ، ضربتين متدارِكتين لا يقوَوْن بعدهما على الثبات .

ولم يغفَلوا عن حَمِيَّة الجند والفرسان يلهبونها للمجازفة بالحياة والأَنفَة من طلب النجاة ، وهو ما نسميه اليوم بالروح المعنوية فعمَد حنظلةُ بنُ ثعلبةَ إلى وَضِين راحلة امرأته ـ أى حزامها ـ فقطعه ، وتتبع رواحلَ النساء فقطع وُضُنَها جميعاً فسقطت على الأَرض ، وصاح بقومه : ليقاتلْ كلُّ رجل منكم عن حَليلتِه[٢] ! . . وراح السيَّافون يقطّعون أَقبيتهم[٣] من مناكبها لتخفَّ أَيديهم لضرب السيوف ، وتسابق الخطباءُ والشعراءُ فى التذمير[٤] والتحريض ، فذهبوا جميعاً يرددون قولَ قائلِهم : «المنِيَّةُ ولا الدَّنِيَّة ، واستقبالُ الموتِ خيرٌ من استدباره»[٥] .

---

(١) بالشدة : بالهجمة .
(٢) حليلته : زوجته .
(٣) أقبيتهم : جمع قباء (بفتح القاف) وهو الثوب ، والمناكب جمع منكب وهو ملتقى رأس العضد والكتف .
(٤) التذمير : الحض على القتال لحماية الذمار .
(٥) المنية ولا الدنية : مثل قالة أوس بن حارثة يوصى ابنه مالكاً ، أى أن الموت أحب إلى من الحياة مع العار .

وتبارز بعضُ الفرسان من العسكرين ، ثم التحم الفريقان وحَمِيَ الوطيسُ وظهر الكمينُ فى أوانِه ، وولت إيادُ فتبعها فريقٌ ممن كَسرت قلوبَهم هذه الصدمةُ التى فوجئوا بها على غير رِقبة[1] ، وأطبق الكمينُ على قلب الجيش ومعه كوكبُ الجيش[2] العربى كله ، فحقَّتْ الهزيمة العاجلة على أقوى الجيشين ، وكُتب النصر لأولى الفريقين به فى ميزان الفنِّ العسكرى الذى يشمل جميع المرجِّحات ، ما عدا المرجِّحَ المادىَّ دون غيره ، وهو العَددُ والسلاح .

إذ الحقيقةُ أن غَلَبة العرب فى يوم ذى قارٍ إنما كانت غلبةً لليقظة على الغفلة ، وللكفاية على العجز ، وللخفة على الفخامة ، وللفن الحربى الصحيح على النظم التقليدية التى لا تَصَرُّف فيها وللعزة المشكورة على الكبرياء المذمومة ، وكان العربُ خُلَقَاء أن ينتصروا بكل وسيلة من وسائل النصرِ فى الحروب القديمة والحروب الحديثة ، إلا تفوُّقَ الفرس فى بعض العُدَدِ التى لم ينفعهم تفرقُهم فيها عند التحام الصفوف .

* * *

وليس فى وسع عالم من علماء الحرب فى زماننا هذا أن يأخذ

(١) رقبة : ترقب وانتظار .
(٢) كوكب الجيش : معظمه .

عليهم خَلَلا فى خطتهم لم يلتفتوا إليه ، أو يُحصىَ عليهم وجهاً من وجوه التدبير قصَّروا فيه ، لأن وجوه التدبير كلُّها فضولٌ[1] بعد أن تستقيم للمقاتل :

١ – أهبة الاستطلاع . و ٢ – رسم الخطة . و ٣ – تنظيم الجيش فى مواقفه . و ٤ – تنظيم الجيش فى حركاته . و ٥ – إذكاء العزيمة فى نفوسه . و ٦ – إضعاف العزيمة فى نفوس خصومه . وهذه كلها هى صفوة لباب الحرب فى العصر الحاضر وفى العصور الغابرة ، وفى جميع العصور إلى آخر الزمان .

ويبدو لنا أن مزية الفرس والروم فى أنواع الأسلحةِ والعُدد كانت مزيةً مبالغاً فيها على الأقل فى ميادين الاشتباك والالتحام ، إذا صح أن لها الرُّجحانَ فى مواقفِ الحصار ومواقف الحرب من بعيد . لأننا عرفنا من أخبار الحروب الماضية أن بعضَ الفرسان البواسلِ كانوا يترجَّلون ليُحكموا الضربَ والحركة ، وكانوا يخلعون عنهم شِكَّتهم[2] تبرُّماً بها وتخفُّفاً من ثقلها ولا سيما فى أيام القَيْظ أو فى المواضع الوَعْرة التى تصعب فيها حركة المدرَّعين فى الشكة

---

(١) فضول : زيادات وأمور ثانوية .

(٢) الشكة : السلاح الذى يلبس ، تقول (شك فى السلاح) إذا لبس سلاحا تاماً وغرق فيه فهو (شاك السلاح ، وشاك فى السلاح) .

السابغةِ[1] ، وكان بعض الضباط من النبلاء يستصحبون خدماً لهم ليحملوا لهم شِكَّتَهم إلى حين الحاجة إليها ، وجاء فى كتاب فيجتيوس (Vegetius) إنجيل الحرب عند الرومان الأقدمين أن الجنودَ كانوا يَضيقون ذرعاً بالدروع المعدنية ويستثقلونها ، ويودون لو يطرحونها ويُتاح لهم العملُ بغيرها ، ولم تكن لهم حاجةٌ بها إلا حين يُرادون على الاقتراب من مواقع السهام والنبال والحراب الطويلة ، لأداء عمل من الأعمال .

* * *

وعندنا أن العرب قد كسبوا الطريقتين معاً بنشأتهم فى البادية واقترابهم من دول الحضارة . ونعنى بهما طريقة العصابات وطريقة الجيوش فى إدارة الحروب .

فهم قد برعوا فى حرب العصابات بالمَرانة الطويلة ، ثم اقتبسوا ما لزمهم أن يقتبسوه من فنون الحرب عند الدول الكبرى على أيامهم ، فلم يخسروا بذلك إحدى الطريقتين بل جمعوا بينهما واستفادوا بما تُفيده كل منهما فى موضعها ، فأضافوا سرعةَ العمل فى طريقة العصابات إلى إحكام التنظيم فى طريقه الجيوش . وكانوا

---

(١) السابغة : الوافية الواسعة .

يقاتلون بفنَّين متساندين يأخذون منهما ما يأخذون ، ويدَعون منهما ما يدعون ، حيث كان الفرسُ أو الروم يتقيدون بفن واحد على التراث المحفوظ. الذى لا يُحسنون التجديدَ فيه . .

ومن المحقق أن قبائل العرب التى أقامت فى الحواضر كانت على الزمن تتلقى النصيبَ الأوفى من كلتا الطريقتين ، إمَّا بالقدوة والتلقين أو بالتعليم المقصود ، ولا سيما قبائل قريش التى كانت تقيم فى عاصمة العواصم العربية من الوجهة الأدبية والثقافية ، وكانت تجمع كل ما تفرق بين أبناء الجزيرة من المزايا والمعارف والصفات ، لأنها أخذت نفسَها بآداب الرئاسة المدنية والبدوية التى يَدين بها جميع هؤلاء .

فالتاريخ الصادق يتقاضانا أن نعرفَ هذه الحقيقةَ لنعرفَ موقعَ العدل والإنصاف من حُكْم الزمن بين الأمم الكبيرة التى تنازعت السيادةَ بعد ظهور النهضة العربية .

فالنهضة العربية لم يُكتب لها النصر لأن الفرسَ والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفى ، بل هى قد انتصرت لأنها كانت تستحق النصرَ بأسبابه التى لا مُصادفةَ فيها ولا محاباةَ ، ولا محلَّ لها لفلتة نادرة لا تقبل التكرار .

وإنما كانت أسبابُ النصر عند العرب ناقصةً فتمت فى أوانها

فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها .

كانوا متفرقين بغير باعث إلى الوَحدة والنهوض ، فجاءتهم الدعوةُ الإسلامية تجمع شَتاتَهم وتبعث كرامتَهم وتنطلق بهم فى سبيلهم . فتم لهم ما نقص ، وتهيأت لهم ذرائعُ النصر فى شِرعة الأرض والسماء ، وعلم النبي عليه الصلاة والسلام بيوم « ذى قارٍ » وهو يدعو العربَ إلى دين التوحيد ، فرأى فيه بوادرَ نصر العرب على العجم ، وأيقن أنه يومٌ تتلوه أيام ، وأنه مُسْمعٌ بدعوته الأممَ جميعاً عَمَّا قريب .